



## لا قدر الله ... !

لروائي الانجليزي أوسبرت سيتويل

—•••••

لست أعرف بعد كيف ستتضح هذه القصة ، فإن مأسا قصه عليك إنما حدث صباح أمس ، قبل أن أغادر السفينة في السويس . جلست على كرسي طويل من القماش ، وإلى جانبي أكداش من الكتب وصحفة حساء فارغة ، أتناول ببصرى إلى الفضاء المكلل بالنجوم ، الفضاء الخاوي الذي لم يخفف من وطأته على الصدر صمك بتواب فيسلي المسافرين . بدا كل شيء دفيئاً رطباً بالغ الرطوبة . وكانت حافة السماء تتدلى منها أعلام مهلهلة من السحب ، وقد ذابت فيها حافة البحر . وكان الرجل الجالس بجواري قد بسط على حجره كتاباً مفتوحاً ، وإلى جانبه أيضاً عدة كتب ، وكان هو الآخر يحمل بنظرة ثابتة إلى المنظر المائي الخاوي . كان البحر يثير روحاً من الكآبة والاعتماد ، لا يساعد على احتمالها إلا ما تبعثه في النفس من الفتور والكلل ، وأنها توج اليوم في الميول فتحمل أناك كثيرين على الاعتقاد بأنهم لا بد قد تمتعوا بالرحلة ما دام الوقت قد مر بهذه السرعة . كان من الواضح أن هذه الروح الكئيبة المنتمة تخيم على وعلى جاري أيضاً . كان جاري طويل القامة نحيفاً دقيق اليدين ، وكان يبدو على خلقته حساسية بالغة الارهاق ، وساءلت نفسي من تراء يكون ... لم تكن الكتب التي بجواره تساعدني على إجابة هذا السؤال ، إذ كانت متنوعة : ترجمة لمجموعة شعر إنجليزية ، ورواية عصرية ، وكتاب على ، ودراسة لسيرة أحد السياسيين ، ومجموعة من القصص القصيرة الحديثة . ثم لاحظت معها كتاباً من كتبتي ، وهو ذلك المسمى « الرجل الذي فقد نفسه » وبفتة حوّل عينيه عن الماء وخطبتي قائلاً : « أحب البحر؟ » . فأجبت : « نعم أنا أحبه ، نوعاً من الحب ، على الرغم من ملاله ، وما

يبحث في لسوء الحظ من العرب . إنني بحار ماهر ، ولكن حين يتمدد الآخرون في فرشهم الخشبية يتمنون لو أنهم يفرقون ، أتمدأنا على فراشي الخشبي ، مرتدياً جميع ملابسى ، أبتهل إلى الله لا أغرق ، وأفكر في الخضم الشاسع من المياه الذي يتلاشى فيه رأس الإنسان فلا يكاد يكون شيئاً . ذلك هو السبب في أنني أفضل البحر الأبيض المتوسط ، حيث نكون عادة على مرأى من البر ... لكن يبدو أنه قد اختفى كلية في هذا اليوم ... بل ليتنى أبلغ قناة السويس ، فإنى أرتقب أن أحظى بوقت ممتع » . قال : « نعم أنا أعرف هذا الشعور ، فإنه يداخلنى أنا أيضاً بعض الشيء . وما دمت أنت كاتباً ، فأقص عليك قصة عنه ولكن أرجو ألا تكون نحن يؤمنون بالطيرة والقال

ربما لا تستحق هذه القصة أن تسمى قصة في واقع الأمر . هي شاهد أكثر منها قصة ، أو هي برهان على إحدى النظريات ... هذه النظرية ، أو الفزى ، هي تلك النظرية القديمة البديهة التي شغف أحد الروائيين المحدثين بتريديدها ، وهي أن ما تشعر به يكون أشد صدقاً ، ولا بد أن يكون دائماً أشد صدقاً ، من مجرد الفكرة التي تدور بخلدك . أو بعبارة أخرى ، اعتمد في حركك على اللس ، لا على البصر . ولكن الناس في هذه الأيام تغوزهم الشجاعة التي تجملهم يعملون كما يشعرون ، فهم يعملون طبقاً للعقل ، ثم يحاولون أن يخرعوا تفسيراً منطقياً فيما بعد ، يفسرون به الأشياء الغدّة التي تحدث لهم . لكن لا جدوى من وراء هذا مطلقاً كانت السفينة مبحرة إلى أمريكا الجنوبية . غادرت تلمبري في عصر يوم ممطر من أيام ديسمبر ، ولكن في اليوم التالي كان البحر هادئاً كأنه بركة زرقاء في فصل الصيف . واستمر كذلك ثلاثة أيام ، حتى عندما عبرنا خليج بسكاي . ولكن برغم هدوء البحر تأخرنا عن الوصول إلى لشبونة ، حتى إذا وصلنا إليها أخذ موظفو الميناء يتجادلون جديلاً لا ينتهى ، كأنهم عقدوا العزم على أن تأخر عن الاقلاع من الميناء . وقفت أرقب المسافرين النازلين وأستمع إلى الشاجرة البرتغالية الصاخبة تعلو وتتناثر كأنها صواريخ مبتلة ، بين وكيل السفينة وأحد موظفي الجرك ... لم يكن بين المسافرين الجدد من يلفت النظر إلا امرأة إنكليزية وزوجها . كانت جميلة حقاً ، ولكن جمالها كان من

نوع عجيب ، كأنها إلهة القدر الاغريقية . كانت عيناها واسعتين ذواتي زرقة عميقة ، يمكن أن تقرأ فيهما معاني كثيرة ، أحدها صادق وكثير منها كاذبة . كانت قسماها المدعورة الحجرية كأنها تمثال كلاسيكي ، يمكن فيه شيء من المأساة . ثم إنى فلنت أو الأخرى أن أقول أحسست — أن بقسماها شيئا من حورية البحر . إذ اتمت عيناها إلى البحر ... كان زوجها إلى جانبها يبدو عادي المظهر . لكن منظرها الفذ كان مقتصرأ على عياها ، أما ملابسها فكأنها اختيرت بحيث تعجز الأثر الذي يخلفه جمالها العجيب ، ونحط من سموه ونجمله عاديا مألوفا .

في الصباح التالي كنت جالسا على ظهر السفينة ، كما أنا جالس الآن معك ، فوجدتني مجاوراً لها . وبعد أن عبثنا برهة بكتبنا عبثا يشابه في اضطرابه حركة السفن واهتزازها — حقاً إن هناك رابطة قوية بين دوار البحر والكتب المطبوعة — بدأنا نتحدث قليلا ، وحين تحدثنا لم يتركنا في النفس أرا غير عادي ، وكان صوتها هادئا مليئا بالاهتمام ثابت النبرات وإن كان فارغا بعض الشيء ، ولم يكن به أي عنصر غريب من المأساة أو من النبوءة . ولكنني رغم ذلك عرفت ، بل شعرت وأحسست ، بأنها كانت تصلها بتلك العناصر الغريبة صلات وثيقة . نجادنا أطراف الحديث ساعتين أو أكثر ، وكان البحر قبل ذلك هادئا كاللبساط ، ولكنه بدأ في خلال عمادتنا تظهر عليه علامة التنير الأكيدة . وكأنه كان يحاول اختبار قواه ، ليستخدمها في مناسبة مقبلة . فصغرت في جنباته رياح هينة ، وأخذت السفينة هزة أثارت المزاج والضحك المهودين بين الشبان من المسافرين الذين كانوا يتنقلون على ظهر السفينة في جلبة ، وضاعفت من حماسة اللاعبين في لعبهم المختلفة ، فازدادوا صرخا ، حتى يخفون ما يشعروا به من بداية التفرز والنشأة ... تسألني عم كنا نتحدث ؟ ... قد نسيت ، ولكنها كانت أشياء مختلفة ، من السياسة ، والأسفار ، والكتب — الكتب البريئة المملة .

ولكن كلما مرت دقيقة ازداد التحدث صعوبة ، إذ ارتفعت بين آونة وأخرى أصوات الأشياء المتصادمة ، وازدادت الريح دويًا ، وإن كان الركن الذي اتجهنا به هادئا بعض الشيء ...

أخبرتني أنهما كانا ذاهبين إلى بونس أيرس ، حيث يمكن أن أسبوعا ، ثم يعودان إلى وطنهما مباشرة . فإن المحتر روفني — وهذا اسم زوجها — كان مريضاً ، وقد نصحه الطبيب بالقيام بهذه الرحلة البحرية . وقال الزوج : « لقد حاولت أن أثنى زوجتي عن المجد ، ولكنها ألحت . أنا لم أعرك بالمجد ، يا حبيبتي ، أليس كذلك ؟ لقد بذلت كل جهدي لمنحك » .

كلا ، لست أستطيع أن أتذكر كل الحادثة مجلداً ، وإنما أتذكر شيئاً أو شيئين من هذا القبيل . أتذكر المزر روفني تقول ، بصوتها الحازم الذي لا يقبل أي سخر أو عبث ، والذي كان مع ذلك فارغاً بدرجة عجيبة ، ذلك الصوت الذي نطق بالأشياء كأنه لا يعنىها — أتذكرها تقول : « مهما يكن من شيء ، فأنا مؤمنة بالقضاء والقدر . أنت لن تستطيع النجاة مما سيحدث لك فهذا هذا ، وما عليك إلا أن تتقبله بأحسن ما في استطاعتك . لن يستطيع ثعلب أن ينجو إلى الأبد ، إذا كانت كلاب الصيد تطارده » ... أنا أتذكر ذلك جيداً ، فإن هذه الملاحظة ، رغم أنها شيء معهود طالما سمعناه على الرغم منا ، ضايقتني إذ ذاك أشد مضايقة ، حتى كدت لا أكنم سخفي ؟ إذ وجدتها لا تنسجم مع ذلك الجمال العجيب ، أو ذلك الوجه الذي كان يبدو مترقياً لأحد الانفعالات العاطفية المظلمة — وكنت واثقا أن هذا الانفعال هو الخوف — فما يجيء هذا الانفعال حتى يصير ذلك الوجه آية رائعة من التعبير ... ولكن ما أكثر ما ينطق الناس في هذا المجال بأفكار تحجب ظن المرء إذ لا يجدها تنسجم معهم ... ثم إنها استرسلت تتحدث عن الأسواق في مقاطعات انكلترا ، وأسملت نفسها إلى نويات طفيفة من الاعتداد بالذات لم تنسجم معها أيضاً .

ولكنني ساءلت نفسي في ذلك الوقت : أكانت تلك حقاً نويات من الاعتداد بالنفس ؟ لقد شعرت بأنها أدخلتها في الحديث لا لتحدث وقفاً على نفسي بل لتدخل الراحة والاطمئنان على نفسها هي . فإن مثل هذا الاعتداد بالنفس يرتبط بالحياة اليومية ، والحياة اليومية هي عادة خالية من البطولة والبسالة ومن النكبات والمآسى ، كما أن الأفكار التي عبرت هي عنها كانت أفكار الحياة اليومية العادية . وقد تشبثت هي بهذه الأفكار لأنها

لا بالطعام ولا بالشراب ولا بالنوم ولا بالسافرين : ولكني لاحظت مع ذلك أن المستر روفنى جلس إلى طعام الغداء وحيداً ... وفى الصباح التالى بدأ كأن الزوجة قد هدأت قليلاً ، وفى أثناء تجوالى على ظهر السفينة قابلته .

صحت بحماسة كاذبة : « صباح الخير ... كيف أنت فى هذا الصباح ... يؤسفنى أن أراك وحيداً » .

فأجاب : « نعم إنه شئ مقلق . كم تمنيت أن يكون الطقس لطيفاً ... فإننا تقترب من ماديرا الآن ، وينبئ ألا يكون الطقس هكذا ... إننى أسأرك بأن يزجبنى ... ليس ذلك لأن زوجتى غير متمودة على الأسفار البحرية — فإنها الآن لا تنصر بالدوار — بل الحق أن الرعب يملكها فى أى سفينة ! »

قلت : « ليس هذا شيئاً مخجلاً ، فإننا أيضاً مرتعب ... وأعتقد أن كثيرين جداً من الناس هم أيضاً كذلك ، لو أنهم اعترفوا بالحقيقة ! »

أجاب : « قد يكون هذا صحيحاً ... ولكن الأمر يختلف بالنسبة إليها فإن آخر رحلة بحرية قامت بها كانت فى (التيتانيك) وقد غرق أخوها التوأم مع تلك السفينة ، ولم تنج هى إلا بمعجزة ... ولستين عديدة رفضت أن تركب سطح سفينة على الإطلاق ، بل إنها أبت أن تقوم برحلة القناة الانكليزية التى لا تستغرق إلا ساعة واحدة ، مع أنها قبل ذلك كانت مغرمة بباريس ... وسأذكر لك شيئاً غريباً : قد يكون البحر هادئاً بالغ الهدوء ، ولكن ما تكاد تضع قدمها على سطح السفينة حتى تبدأ الزوجة ، بداية لا شك فيها . لقد شاهدت ذلك يحدث فى القناة الانكليزية عشرات المرات ، حتى إننى كثيراً ما تمنيت أنى لم أحملها على تغيير عزمها والهجى معى ، حتى لتلك المسافة القصيرة ... ما كان ينبغى أبداً أن أسمح لها بالهجى فى هذه الرحلة ... كان ينبغى أن أحظر ذلك حظراً باتاً ، من البداية ... ولكنها كانت قلقة البال على — فقد كنت مريضاً زمناً طويلاً ، وأولئك الأطباء الملاحين قالوا إن رحلة بحرية طويلة هى الشئ الوحيد الذى يرد إلى العافية — فألحت هى وأصرت . ولم أستطع منعها ، فقد بدا كما لو كان من المحتم أن تجىء ، وإن ارتاعت هى من ذلك ، لو كنت تفهم ما أعنى ... »

كانت تنوق أشد نوق إلى أن تتفح نفسها بأن حياتها ليست فى حقيقتها إلا من ذلك النوع المادى ، وأنه ليس من وجود فعل لتلك النكبة العظيمة والمأساة القديمة التى ترتبط بها والتى هربت منها . فكل فكرة عبرت عنها ، وكل مناسبة أشارت إليها ، كانت كأنها تقرر تنسها لتؤكد من أنها صاحبة ومن أن الكابوس الخيف قد زال ...

ازداد الطقس اضطراباً ، ولم أرها بعد ذلك فى ذلك اليوم . فقد تضاعفت حدة الزوجة فلم يعد أحد ليجد متعة فى الرحلة البحرية . بل لم يعد من استطاع أن ينام المرة ، وإن كانت الزواجر فى العادة تجملنى أستغرق فى النوم . فإن طرق عينيك السبات لحظة واحدة فى الليل فلا بد أن يوقظك فى الحال صوت الأبواب تفتح وتغلق وتصفق وتصادم ، أو يوقظك إحساس عجيب بأن الروح نفسها ، تلك الذات النفسانية التى بنى حولها الجسد ، قد تنقلت من مقرها بعض الشئ ... يسائل المسافرون أنفسهم ، كمادتهم فى خلال رحلة بحرية : « لم قت بهذه الرحلة ؟ » ولكنى لم أشعر إلا بشعور واحد ، شعور طالما أحست به فى المحيط الأطلنطى ، وإن كنت قد قت فيه برحلات كثيرة لم يكن عنها من بعيد ، ذلك الشعور هو الرعب . لم يقلبنى دوار البحر ، وإنما شمرت بالرعب من تلك الأودية الباردة فى أعماق المياه تحت سطح البحر ، تلك الأودية اللانهائية المنحرجة التى أخبرنا بأنها فى عمقها تماثل جبال البر فى علوها ... وبهذه المناسبة ( ساعنى لقطى جبل قصتى ) لم يزد الطقس اضطراباً منذ بدأنا حديثنا ، أم ليس هذا إلا وهما من أوهام تخيلتى ؟

فأضطرت إلى أن أعترف بأن الطقس قد تغير ؛ فقد بدأت السفينة تترنح بصورة غير منتظرة .

« لقد ظننت كذلك » قال ذلك وتوقف برهة ، ثم استرسل : « على أية حال ستكون القناة هادئة ... ولكن لأستمر فى قصتى : من حسن الحظ أنى كنت سأغادر السفينة فى ماديرا ، ولم يكن دونها إلا رحلة يومين . ولكن كم تشوقت إليها فى ذينك اليومين ، تلك الدرة البديعة المستقرة فى وسط المحيط تحت غطاء سحب الأطلنطى ... »

كان اليوم التالى شيئاً للغاية ، بحيث لم يعد المرء يهتم بشئ ما

وإذن فهذا هو السر! لا غرابة إذن أن تكون مرتاعة، حتى على أشد اليأس ضحولة. تذكرت تلك السفينة الفاخرة في رحلتها البكر، وتذكرت اليدين اللابنتين، والاصطدام المفاجئ الرهيب، والسكون الشامل، حيث وصلتها رياح التدمير، ثم تذكرت الاضطراب والفوضى في الماء، والتلاقى الغريب الصامت في الدروب العميقة الخضراء بين الأمواج، حيث ترخ القادرون على السباحة إلى أعلى وإلى أسفل، أو اسطلموا الواحد بالآخر كأنهم سدادات انفلين، ولكن لم يستطيعوا تخاطباً، إذ كانت أصواتهم قد ضاعت تحت صوت المحيط، فبدوا وكأنهم بعضهم لبعض عدو... إذن فهذا هو السر...! هذا هو معنى تينك العيتين الواسعتين، كيمنى تمثال في ضياء الشمس الباهر، ذلك هو المعنى المختفي تحت كلماتها العارضة، السخيفة الجادة معاً: «لن يستطيع ثلث أن ينجو إلى الأبد، إذا كانت كلاب الصيد تطارده». كلا، ولا الإنسان يستطيع النجاة، إذا كانت قطمان الشر والهلاك تصاحب بحبسه وذهابه.

في عصر ذلك اليوم وصلنا ماديرا. فودع المستر روفنى وزوجته. وعلى رغم أنهما كانا مشغولين مع أهل الجزيرة الذين هاجموا يريدون أن يبيعوا لها ما يحملون من الأقشة المطرزة والزهور والنعال والصناديق المصنوعة من خشب النخل، ونماذج العربات التي تجرها الثيران، وملابس سكان الجزيرة - فإنهما لوحا لي بأيديهما إذ غادرت السفينة في زورق إلى البر. ولأحظت مرة أخرى خلوهما من التعبير خلوا عجباً، وذلك شيء إن أنعمت النظر فيه تجلى لك رعب أشد من الرعب. ثم ظننت أنهما نظرت إلى البر نظرة التلهف المشتاق، ولكنى كنت أبعد من أن أرى بوضوح... مهما يكن من الأمر فإنهما الآن سالمان، فإن بقية الرحلة، خصوصاً في هذا الوقت من السنة، هادئة في المنطقة الحارة، تتجلى فيها الحداثات العميقة الزرقاء التألقة تحت المساء، وتقفز الأسماك الطائرة فوقهما كما تثب العصفافير فوق أرض البستان.

منفى أسبوعان، قبل أن أقرأ في صحيفة هذا الخبر: «إعصار في المحيط الأطلنطي الجنوبي. أمواج المد تطفئ على المدن الساحلية. باخرة بريطانية تفرق على مقربة من (ريك). غرق

جميع المسافرين». وفي الحال تذكرت المسر روفنى... إذن قد انتهى الأمر الآن... إنها كانت تنصني إلى البحر بكيفية ما... ولا بد أن يستردها البحر إلى أحضانه. لقد كانت تعرف ذلك دائماً، وإن لم يستطع عقلها تصديق ذلك أحياناً. مهما يكن من شيء، فقد انتهى الأمر، كأنك ما كان مغزاه. انتهى طراد طويل، لا يستطيع الرء أن يتعرف على بدايته، أو لعله ليس إلا الفصل الأوسط في درامة تستغرق عدة قرون، أو عدة أحقاب... ساءت نفسى: ترى كيف كانت هيئة ذلك الوجه الجليل في النهاية، وإلى أى حد جعلت سوتها هادئاً عملياً وهي تحدث زوجها للمرة الأخيرة، عارفة ما ينحني لها القدر... ولكن الواقع كثيراً ما يختلف عن النبوءة، وهذا ما حدث في هذه الآونة... فإني عاودت قراءة الصحيفة، فقرأت في أخبار آخر ساعة: «إنقاذ أحد المسافرين. اتفاق غريب... المسر روفنى التي أنقذت عصر أمس في حالة إنفاك، يتحقق أنها أحد الذين نجوا من التيتانيك، حين غرق أخوها التوام مع تلك السفينة. ويخشى أن المستر روفنى، المشهور في عالم الرياضة، وجميع المسافرين الآخرين والبحارة، قد غرقوا... إذن فالبحر لم يستردها بعد، والصلب قد نجاة مرة أخرى، يا للمسكينة! لم يتم الفصل الأخير بعد.

ملك تعتقد أنني من المؤمنين بالخرافات إذ أشعر بما أشعر الآن؟ ولكن الحياة تبدو أقرب إلى الفهم حين يؤمن الرء بالخرافات... على أية حال، قد حدث ذلك منذ ثلاث عشرة سنة... وأستعذ بالله، إنها فوق هذه السفينة، مسافرة إلى سيلان لتري ابنها. لقد تحدثت إليها هذا الصباح، هي كأنها لم تكبر يوماً واحداً. ولكن ماذا ينبغي أن يفعل المرء: أيجيب غريزة الإيمان بالخرافات أم يتجاهلها؟... إننى أجب من أن أرتكب مخف مفادرة هذه السفينة في السويس.

توقف عن الحديث، واستغرق في الصمت والتفكير - ولكنى جاهدت حتى نزلت إلى قاع السفينة، متشبهاً بكل ما وقعت عليه يدي حتى لا أفقد توازنى، وهناك أرسلت رسالة برقية.

[من مجلة الأدب والفن الانجليزية] أوسبرت سيثويل

أقصّدوا متحف فؤاد الأول  
لسلكك حديد وتلغرافات وتليفونات الحكومة المصرية  
أمام مخزن بضائع محطة مصر

لتشاهدوا تطورات وسائل النقل البرية والبحرية والجوية في مختلف الأزمان ولتروا أكبر  
وأدق مجموعة من النماذج والمخرايط والصور المضاءة لتاريخ النقل في مصر والخارج  
المتحف مفتوح للزيارة كل أيام الأسبوع ما عدا أيام الاثنين والعطلات الرسمية كما يأتي :-

فصل الصيف - من أول مايو إلى آخر أكتوبر

من الساعة ٨ ٠٠ إلى الساعة ٣ ٠ ١٣

تليفون رقم : ٤١٩٦٤

فصل الشتاء - من أول نوفمبر إلى آخر إبريل

من الساعة ٨ ٣٠ إلى الساعة ٠٠ ١٤

رسم الدخول ٢٠ ملياً

[ طبعت بدار الرسالة بشارع السلطان حسين - هاجدين ]